العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

"الخطاب بوصفه ممارسة أخلاقية"

إعداد الباحثة:

وئام مساعد الأحمدي

جامعة الملك سعود – الرياض

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ملخص البحث:

ينطلق البحث من افتراض مفاده أن الخطاب هو ممارسة أخلاقية، وفي سبيل إثبات هذه الفرضية، عرضت الدراسة لمفهومي الخطاب والأخلاق، سعيًا لتحرير المصطلحات التي قام عليها البحث. وقد نظر البحث في أبعاد العلاقة بين اللغة والأخلاق في إطار فلسفي قديما وحديثا في عرض مقتضب. وقد خص الحديث بعدها في حقلين معرفيين، هما: التداولية والأخلاق، والبلاغة والأخلاق. حيث وُضِّح من خلال الأول إن الالتفات إلى البعد الأخلاقي في دراسة اللغة عند التداوليين ظهر في الاهتمام بالآداب الاجتماعية، ابتداء بأفعال الكلام، ومرورا بمبدأ التعاون، وانتهاء بنظريات التأدب. أما الثاني فقد اتخذ مسارين، الأول علاقة الأخلاق بالبلاغة في التراث اللغوي العربي، والثاني علاقة الأخلاق بالبلاغة الجديدة، إذ أسهم كلاهما في الدعوة إلى تخليق الخطاب، إما تضمينًا أو تصريحًا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الأخلاق، التداولية، البلاغة.

المقدمة:

كانت الدراسات اللغوية ترتكز على استنباط القواعد التي تضبط اللغة لإنتاج جمل سليمة لغوية. فنظر الدراسون إلى اللغة من مستويات متعددة تركيبا ودلالة ومعجمًا وصرفا بوصفها مستويات متضافرة لإنتاج جمل سليمة ومقبولة استنادا إلى مدونات لغوية نموذجية. وهذا الأساس الذي أنتج اتجاهات مختلفة في دراسة اللغة لم يلتفت إلى منتج اللغة ومتلقيها إلا في حدود ضيقة يستدعيها المقام. أما الدراسات البلاغية فقد التفت إلى المخاطب في حدود أوسع قليلا وذلك لنظر في أحواله وأخذها في عين الاعتبار سعيًا إلى أن يكون الخطاب الموجه إليه أكثر تأثيرًا فيه. وفي إطار التوسع في النظر إلى اللغة خارج حدود الجملة، ظهر الاهتمام باللغة من منظورات متعددة، منها النظر إلى اللغة في الاستعمال كما وضعت أسسها التداولية، ومن هذا المنظور صار الالتفات إلى المشاركين في الخطاب والاهتمام بأحوالهم ومقاصدهم أكبر، فلم يعد الأمر مقصورًا على دراسة نماذج لغوية معيارية بل تعداه إلى الاهتمام بالخطاب بأشكاله المتعددة التي تمثل منجزات لغوية متداولة في الواقع الاجتماعي، وكيفيات التواصل والتفاعل. وعليه أضحى الخطاب ذا علاقة مباشرة بصانعه ومتلقيه، ومن هذا المنطلق وضعت الدراسة فرضية مفادها أن الخطاب ممارسة أخلاقية.

حيث تسعى هذه الدراسة إلى رصد أبعاد العلاقة بين الخطاب والأخلاق، وكيف برزت هذه العلاقة وتمثلت في حقلين معرفين هما التداولية بكونها دراسة اللغة في الاستعمال، والبلاغة الجديدة مع الالتفات لما يحمله الوصف من إشارات ذات علاقة بالموضوع محط الدراسة. وتأتي أهمية هذه الدراسة من أن النظر إلى اللغة من منظور الاستعمال والتأثير يفضي بالضرورة إلى استحضار البعد الأخلاقي في معناه العملي المتمثل بالآداب السلوكية اليومية، ومعناه الفلسفي الذي يعكس قيم أخلاقية عليا في دراسة اللغة. وسعيا لتحقيق هذه الأهداف عرضت الدراسة لمفهومي الخطاب والأخلاق، وذلك لتحرير المصطلحات الأساسية كما تتصورها الدراسة. ثم النظر في أبعاد العلاقة بين اللغة والأخلاق في إطار فلسفي قديما وحديثا في عرض مقتضب. وقد خص الحديث بعدها في حقلين معرفيين، هما: التداولية والأخلاق، والبلاغة والأخلاق. حيث وُضِّح من خلال الأول إن الالتفات إلى البعد الأخلاقي في دراسة اللغة عند التداوليين ظهر في الاهتمام بالآداب السلوكية الاجتماعية، ابتداء بأفعال الكلام، ومرورا بمبدأ التعاون، وانتهاء بنظريات التأدب. أما الثاني فقد اتخذ مسارين، الأول علاقة الأخلاق بالبلاغة في التراث اللغوي العربي، والثاني علاقة الأخلاق بالبلاغة الجديدة، إذ أسهم كلاهما في الدعوة إلى تخليق الخطاب، إما تضمينًا أو تصريحًا.

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

مصطلحات الدراسة:

قبل الدخول في حيثيات العلاقة بين الخطاب والأخلاق، لابد من تحديد مفهومي الخطاب والأخلاق كما يتبناهما البحث.

١.مفهوم الخطاب:

يشير مفهوم الخطاب إلى جملة من التعريفات التي تضيق حينًا، وتتسع حينا آخر في الحقل اللغوي نفسه، وفي حقول معرفية مجاورة أخرى وظفت المصطلح. وإذا استهللنا الحديث عن المعنى اللغوي للخطاب سنجد أنه قد رُبط بعملية المخاطبة بما تستدعي من طرفين وكلام منطوق متبادل بينهما، فقد أصل ابن فارس لمادة خطب بأصلين: «أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخُاطبه خِطابا»1، وجاء في لسان العرب: «الخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكَلامِ، وقد خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ».[2] وهذا الربط له مقابله في اللغة الإنجليزية، إذ يشير Discourse بأنه تواصل شفاهي، حديث، حوار[3].

وقد طابق هذا المعنى اللغوي الاستعمال الاصطلاحي في مقابل اللسان في ثنائيات دوسوسير فكان مرادفا للكلام (الخطاب/ اللسان)، كما استعمل في مقابل الجملة في لسانيات الخطاب/ لسانيات الجملة، وهنا كان مرادفًا للنص بعدّه أكثر من متوالية جملية. ثم تجاوز ذلك كله إلى كونه «طريقة لتصور اللغة»4، تتمثل هذه الطريقة في أن الخطاب هو بناء اجتماعي للواقع، فالنصوص وحدات تواصلية مضمنة في الممارسات الاجتماعية والثقافية، فكل ما نكتبه أو نتحدث به يتشكل ويُشكل هذه الممارسات، ولهذا فالخطاب في علاقة تفاعلية متشكلٌ من العالم، ويشكلُ هذا العالم،5 فالمقصود إذن بالخطاب في هذا المقام هو كل ما تنتجه اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية سواء أكانت نصوصا مكتوبة، أم منطوقة.

٢.مفهوم الأخلاق:

يدور مصطلح الأخلاق حول الجذر «خلق» الذي يربط بين ظاهر الإنسان وباطنه، فالخُلق «هو الدِّين والطبْع والسجية، وحقيقته أَنه لِصورة الإنسان الباطنة وهي نفْسه وأَوصافها ومعانيها المختصةُ بِها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها»6، فدلالة الخَلق على الهيئة والصورة الخارجية، فيما يختص الخُلق بالقيم العليا التي يؤمن بها الإنسان فتدفعه للعمل وفقها.

وينظر إلى الأخلاق فلسفيا بتقسيمها إلى «عملية» و«نظرية»، حيث تتمثل الأخلاق العملية في «مجموعة قواعد السلوك المعتبرة في زمان معين... والأخلاق بهذا المعنى نسبية، بحيث تختلف باختلاف البيئات والأزمان»، أما الأخلاق النظرية فهي «القائمة على مبادئ مطلقة، كالحق والواجب والحرية والمسؤولية، وما لهذه المبادئ من منطلقات فلسفية، تشكل مذاهب أخلاقية معروفة. والأخلاق

1 ابن فارس، أحمد، *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م، ١٩٨/٢، مادة «خطب»
2 ابن منظور، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير؛ محمد أحمد حسب الله؛ هاشم محمد الشاذلي، د.ط، (دار المعارف، د.ت)، مادة «خطب»
3 لتفصيل ذلك، ينظر: ميلز، سارة، *الخطاب*، ترجمة: عبد الوهاب علوب، ط.١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ١٣–١٤
4 ينظر: شارودو، باتريك؛ منغنو، دومينيك، *معجم تحليل الخطاب*، ترجمة: عبد القادر المهيري؛ حمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٣م، ١٨٠ – ١٨٤
5 بالتريدج، براين، *تحليل الخطاب*، ترجمة: عبد الرحمن الفهد، د.ط، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، ٢٠١٨م، ٨
6 ابن منظور، لسان العرب، مادة «خلق»

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

بهذا المفهوم مبادئ معيارية مطلقة»،[7] ولعل الأخلاق في صفتها العملية تميل إلى أن تكون آدابًا، أما إطلاق لفظ الأخلاق فهو يحيل إلى قيم متعالية في كيفية التعامل مع الغير.

اللغة والأخلاق نظرة فلسفية:

إن البحث في علاقة اللغة بالأخلاق يحيل إلى الإنسان بالضرورة، فالتاريخ الفسلفي الذي حاول أن يحد ماهية الإنسان رهنها بقدرته اللغوية بعدَّها مرآة للفكر، فالإنسان حيوانٌ ناطق، وباستحضار رؤية طه عبد الرحمن الفلسفية في النظر إلى الإنسان بوصفه «كائنًا أخلاقيًا»، سنجد في الخطاب – بكافة تمظهراته – المجال الحيوي الذي يؤكد العلاقة بين اللغة والأخلاق. فالدعوة إلى «التحاور» مثلا إنما تتطلب قاعدة متينة من الاعتبارات الأخلاقية بين الأطراف المشاركة حتى يكون التحاور ناجعًا ومثمرًا، إذ يمثل التحاور «ممانعة أخلاقية لنوازع الأنانية والاستعلاء المتأصلة في طبائع الآدميين»، وبهذا تكون القدرة على إقامة حوار «هو الباب المفضي إلى تحقيق كل فضيلة»، وبهذا التصور فالتحاور «أم الفضائل»[8]. والمتأمل في بعض الأوصاف التي من الممكن أن نسم بها اللغة، نحو سلامة اللغة وبراءتها، سيجد أنها لا يمكن أن تتحقق دون أن تكون صفة لمستعملها، فإمعان النظر في هذه العلاقة قد يفضي إلى القول بأن اللغة الفاضلة هي حلم مثالي، غير قابل لأن يكون واقعًا معاشًا، إذا لا تنفك نزاهة اللغة عن نزاهة أصحابها ومستعمليها. وعليه فالخطاب ممارسة أخلاقية إلى حد بعيد.

وبالنظر إلى هجوم أفلاطون على الخطابة المتمثل في محاورة جورجياس خصوصا، سنجد أن مرد ذلك وسببه الرئيس هو أنه يراها ممارسة غير أخلاقية[9]، فيما كان تقسيم أرسطو الخطابة إلى قضائية واستشارية واحتفالية وراءه محاولة تشريع منطق للقيم إذ كان يفكر في الدفاع عن قيم العدل والخير والجمال على الترتيب كما رأى بيرلمان.[10] بل إن أرسطو في فن الخطابة صرّح بأن أحد التصديقات التي يقدمها القول إنما يتوقف على أخلاق القائل، «فالخطيب يُقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يُلقى على نحو يجعله خليقًا بالثقة، ... وهذا الضرب من الإقناع.. ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم، لا عن طريق ما يظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم»[11]، وأرسطو هنا يؤكد على أن أخلاق الخطيب هي أحد أهم عناصر الإقناع لديه، ويخلص إلى أن من يملك وسائل الإقناع يجب أن يكون قادرًا على التفكير المنطقي، وعلى فهم الخلق الإنساني والخير، وأن يفهم الانفعالات، فالخطابة فرع من الجدل، وفرع من علم الأخلاق[12]، وهذا ما يؤكد العلاقة الوطيدة بين اللغة والأخلاق في المجال التداولي.

أما حديثًا فاهتمام الفلاسفة بعلاقة اللغة بالأخلاق قد ظهر في إطار اهتمامهم بالحوار والتواصل. فهابرماس وإن كان يرى في الأخلاق مطلبًا لا معطى، يتحقق ضمن التواصل، إلا أنه يؤكد افتراضات أربعة تؤسس لما أسماه بأخلاقيات المحادثة، أولها المعقولية التي يعبر عنها بجمل مركبة تركيبا صحيحا، وثانيها حقيقة مضمون القول المتضمنة وصف لحالة واقعة موجودة، وثالثها هو مصداقية

7 الكتاني، محمد، *موسوعة المصطلح في التراث العربي*، د.ط، الشركة الجديدة دار الثقافة، المغرب، ٢٠١٤م، ١٠٩/١

8 الراضي، رشيد، *الحجاج والمغالطة*، ط.١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م، ٦

9 عبد اللطيف، عماد، *ضد البلاغة: الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون*، ط.١، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٧م ، ٣٣

10 العمري، محمد، *دائرة الحوار ومزالق العنف*، د.ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م، ٣٩

11 نقلا عن: العمري، محمد، *بلاغة الخطاب الإقناعي*، ط.٢، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م، ٢٤ – ٢٥

12 ينظر: العمري، *بلاغة الخطاب الإقناعي*، ٢٥

التلفظ بوصفها وظيفة لإقامة علاقة مستقيمة ما بين الأشخاص، ورابعها هو صدقية ما يقال بحيث يعبر عن النوايا بطريقة صادقة بعيدة عن التضليل والكذب ومن دون سفسطة. [13] وهي افتراضات وإن جوبهت بالنقد والتفنيد بوصفها مثالية يتعذر تحققها إجرائيًا، تؤكد حقيقة أن اللغة بوصفها تواصلا مع الآخر، لا يمكن أن تخلو من معايير أخلاقية.

كما قدم فوكو إسهاماته في مناقشة سؤال العلاقة بين الخطاب والأخلاق، الذي تمثل في «الصراحة» حيث أكد فضيلة الشجاعة في قول الحقيقة، وحرية القول المتمثلة في قول ما نرغب في قوله في الزمان الذي نريده وبالكيفية التي نؤمن بضرورتها، فالصراحة عنده بوصفها قولا تتضمن موقفا أخلاقيا، وأساسها هو جعل اللغة متفقة مع التصرف والسلوك.[14]

هذا العرض الموجز يعكس عمق العلاقة بين اللغة والأخلاق من وجهة نظر فلسفية، وتحديدا لإطار معالجة هذا المبحث، سأكتفي بالوقوف عند تقاطعات الأخلاق واللغة حقلين معرفيين هي التداولية والبلاغة بوصف مجالهما الأقرب لمعالجة الموضوع لغويا، وإن تداخلت الاختصاصات.

1. التداولية والأخلاق:

قبل أن أبسط الحديث عن حدود العلاقة بين التداولية والأخلاق، لا بد من الإشارة إلى أن التداولية كما تُعرَّف بأنها دراسة اللغة في الاستعمال، تنظر إلى هذا الاستعمال من منظور غائي، بمعنى أن الكلام يكون لتحقيق غاية ما، أو هدف معين، أو الحصول على فائدة.[15] هذه النظرة قد تتعارض مع مفهوم الأخلاق كما نتصوره، إذ أن الالتزام بالأخلاق لا يكون لمصلحة مأمولة أو منفعة متحصلة، لكن نظرًا لأن الأمر مرتبط بالرؤية الأخلاقية الغربية، ويضيق المقام لعرض تفاصيلها، سنكتفي بالإشارة إلى الوعي بذلك الفرق، فحتى لو كان الهدف من وراء هذه الاستراتيجيات هو تحقيق المنفعة، فإن هذا لا يجرد الفعل في سياقات متفاوتة من تضمنه لمراعاة الآخر وحفظ كرامته بصفته ذاتًا إنسانية. ويؤكد من ناحية أخرى أن حصول المنفعة قد يتعذر في الممارسة الخطابية حينما تخلو من الآداب ومن ثمة يتحقق ما انطلقنا منه ابتداء من أن الخطاب هو ممارسة أخلاقية. فعند النظر إلى مفهومي الخطاب والأخلاق سنجد أنهما نقطة الالتقاء الأولى بينهما يتمثل في أن الخطاب يعتمد على منجزات لغوية متداولة، وعليه فإن القول بأن الخطاب ممارسة أخلاقية يستمد شرعيته من النظر إلى اللغة في واقع الاستعمال، فيتحدد الخطاب حينها في زمن معين، ومكان معين، وسياق معين، بين أطراف محددين. وعند استحضار المشارك في الموقف الكلامي متلقيًا أو منتجًا نستطيع أن نحيل إلى تقويم ما يُقال، فبمجرد أن ينطق المرء فسيكون كلامه قابلا لأن يخضع للحكم الأخلاقي، هل ما يقوله صدقًا أم كذبًا؟ هل هو واضح وأمين في نقله أم مدلس؟ ما مدى التزامه بالآداب العامة من عدمه عند الطلب أو السؤال أو الرفض وغيرها من المواقف الكلامية. بناء على ذلك نستطيع القول إن الالتفات إلى البعد الأخلاقي في دراسة اللغة عند التداوليين ظهر في الاهتمام بالآداب الاجتماعية، ابتداء بأفعال الكلام، ومرورا بمبدأ التعاون، وانتهاء بنظريات التأدب.

---

13 أبو النور، أبو النور حمدي، *يورجين هابرمس الأخلاق والتواصل*، د.ط، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٢م، ٢٥٤ – ٢٥٥

14 نقلا عن: بغوره، الزواوي، *اللغة والسلطة*، ط.١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠١٧، ٣٧٩ – ٣٨٠

15 ينظر: سويرقي، محمد، *اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصلح البلاغي*، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مج٢٨، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ص ٢٩ – ٥٠، ٣٠

فأوستن حين نظر إلى قدرة الكلام على الفعل، أدرك أن لجوء مستعلمي اللغة إلى هذه التعبيرات غير المباشرة قد يكون بدافع من اللباقة، وهو ما أكده سيرل حينما لاحظ أن أفعال الكلام لا يعبر عنها بشفافية في حالات متعددة ومرد ذلك في بعض الأحيان هو الميل إلى اختيار طرق في التعبير أكثر تأدبا من غيرها. وهو ما شرَّع باب البحث في قواعد التأدب بوصفها من الموضوعات التداولية المهمة.[16] صحيح أن هذه الملاحظات الأولية التي ظهرت لم تهدف إلى استحضار البعد الأخلاقي في المعالجة الفلسفية للغة، لكن ما يبدو جليا أن واقع دراسة اللغة في استعمالها يفضي مباشرة إلى الاهتمام بآداب وأخلاقيات عامة.

فالأخلاق تمثل في الخطاب عنصرا أساسيا، «لأنها تضمن كمالية الخطاب في حد ذاته، وتسهم في إبقائه متواصلًا»، فثمة حد أدنى من التعاون الذي يلزم قيامه بين الطرفين لنجاح العملية التواصلية لأنه من المفترض ألاَّ يحاول المتخاطبون خداع الآخرين أو تضليلهم من خلال المعلومات المتبادلة.[17] وعلى هذا المبدأ . أقصد التعاون . صاغ غرايس (١٩٧٥م) نظريته التي قامت على أربعة مسلمات رئيسة هي: القدر، والكيف، والملاءمة، والجهة.[18] ويهمني في هذا المقام التركيز على المسلمة الثانية حيث ترتبط ارتباطًا مباشرة بمحور الحديث إذ تنص على ما يلي: «لا تقل ما تعتقد أنه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه» فالكذب من العلل الأساسية التي إذا تخللت الخطاب استحق أن يوسم بكونه خطابا غير أخلاقي. وهذا لا يعني أن المسلمات الأخرى تخلو من أي بعد أخلاقي، فالأمر على خلاف ذلك، فمثلا الالتزام بالقدر المناسب للمقام يقي الشخص من أمرين، هما: أن يقع في النقص الذي قد يفضي إلى التدليس، أو أن يتجاوز الحد الذي قد يؤدي إلى اللغو والثرثرة واللغط، كما أن مراعاة الملاءمة والوضوح والإيجاز والبعد عن مكامن اللبس كلها تدل على مسؤولية أخلاقية للمشاركين في الحوار، بيد أن الإخلال بهذه المسلمات يقدح بعملية التبليغ، والوقوف على حدودها دون الأخذ في الاعتبار بالجوانب التهذيبية المتعلقة بطريقة التبليغ، وهو ما دعا اللغويون التداوليون من بعده إلى تقديم إسهامات في التنظير لظاهرة التأدب في الخطاب، بعد أن أدركوا الدور الذي تحدثه الآداب في التفاعلات اللغوية.

فقد رأى ليتش أن مبدأ التأدب هو مبدأ مضاف إلى مبدأ التعاون مكمل له، لكنه يؤكد دوره التنظيمي الذي قد يتجاوز مبدأ التعاون وذلك «لأنه يحافظ على التوازن الاجتماعي وعلى علاقات الصداقة التي تمكننا من أن نفترض بأن مخاطبنا متعاون معنا في المقام الأول ... فإن المرء إذا لم يكن على نحو من اللطف والخلق مع جاره، فإن قناة التواصل بينهما قد تنقطع»[19]، وهذا يوضح الوظيفة الاجتماعية المهمة التي يؤديها التأدب في المحافظة على العلاقات والتواصل في المجتمعات.

سنجد أن المبادئ التداولية التي راعت التعامل الأخلاقي في التواصل الإنساني متعددة، فمنها مبدأ التأدب الذي صاغته لايكوف (١٩٧٣م) «لتكن مؤدبًا» وفق ثلاث قواعد تهذيبية هي: التعفف، والتشكيك، والتودد، ومنها مبدأ التواجه لبروان وليفنسن الذي يقوم على فكرة مفادها «لتصن وجه غيرك»، أما ليتش فقد صاغ مبدأ التأدب على ست قواعد هي: اللباقة، والسخاء، والاستحسان، والتواضع،

16ينظر: زوفري، ساندرين، *اكتساب التداولية من منظور معرفي واجتماعي*، ترجمة: سعد محمد القحطاني، د.ط، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٨م، ٦ – ٩

17 حمو الحاج، ذهبية، *الأخلاق في الخطاب بين القصدية التداولية والقيود الاجتماعية*، ضمن كتاب الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغية وتداولية، ط.١، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٩م، ٢٣

18 نقلا عن: صحراوي، مسعود، *التداولية عند العلماء العرب*، ط.١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥، ٣٣

19 ليتش، جيوفري، *مبادئ التداولية*، ترجمة: عبد القادر قنيني، د.ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م، ١١٠ – ١١١

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

والاتفاق، والتعاطف[20]، وجميع هذه المبادئ أسست عند صياغتها للبعد التهذيبي للكلام للمحافظة على العلاقات الاجتماعية، وسير المحادثات والحوارات والخطابات.

وتكمن أهمية الالتفات إلى نظريات التأدب، في وجود جملة من الوقائع غير المتجانسة في نظام اللغة لا يبرر وجودها ولا تقبل التأويل إلا في ظل نظريات التأدب التي تعيد تنظيمها في نسق،[21] وهذا يؤكد على العلاقة المتينة بين اللغة والأخلاق. إذ لا يمكن أن نشتغل على دراسة اللغة دون النظر إلى الكيفية التي يسلكها المخاطب للتعبير عن أفكاره وآرائه ورغباته، وهذه الكيفية لا تحكمها قوانين اللغة وحدها، إنما تتقاطع معها الاعتبارات الاجتماعية، التي تتمثل في الآداب، التي تنظر لها التداولية نظرة لا تخلو من بعد نفعي حيث يصفها بكونها «آلة للمحافظة على التوازن المعهود بين المتفاعلين أو ترميمه ... لصنع الرضا المتبادل»، رضا المتحدث عن نفسه، ورضا الآخرين عنه.[22]

2. البلاغة والأخلاق:

سأقسم الحديث تحت هذا المبحث إلى مسارين، الأول علاقة الأخلاق بالبلاغة في التراث العربي، والثاني علاقة الأخلاق بالبلاغة الجديدة، إذ أسهم كلاهما في الدعوة إلى تخليق الخطاب، إما تضمينًا أو تصريحًا. وهذا الفصل تمليه مراعاة البعد المنهجي ذلك أن مصطلح البلاغة الجديدة، نمى في المجال الأكاديمي الغربي تحديدًا، قبل أن يتداول في المجال العربي، ولفظة «جديدة» أملتها الظروف الثقافية واللغوية المحيطة، حيث إن مصطلح البلاغة «Rhetoric» في تاريخ الفكر الغربي ارتبط بإيحاءات سيئة على مدار قرون، إلى الحد الذي أدى إلى إلغاء تدريسها في المؤسسات التعليمية الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر، فهي أصبحت محملة بدلالة ازدرائية؛ إذ تقترح الخداع والاحتيال والكذب، أو تؤلف بين الكلمات الجوفاء والتعبيرات المبتذلة.[23] ومن ثمة فإن إعادة إحيائها من جديد تطلب وصفًا يمنح لها إمكانية الرجوع إلى الساحات العلمية.

ولم يلحق البلاغة العربية التشنيع والاستنقاص الذي ارتبط بالبلاغة اليونانية، وإن لحقتها نزعة المنطق التي أثقلتها بكثرة التقسيمات وتضخم قاموسها الاصطلاحي، ثم اختزالها في زخرفة الكلام، واهتمامها بالجمالي وبعدها عن الخطابات في المجال التداولي، وهو الأمر الذي أدى إلى نداءات خطاب التجديد، في محاولة إعادة قدرتها على التحليل وتوسيع دائرة مجالاتها. ما يعنينا في هذا السياق أن البلاغة العربية في نشأتها وتأسيسها لم تكن بلاغة زخرف وتزيين لفظي مفرغة من المضامين والمفاهيم إنما كانت بلاغة موسعة، رُوعي فيها ما هو أبعد من اللفظ، بل أن الاهتمام باللفظ وحده كان موضع استهجان، «فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنَّة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب، والتعرض للشَّين»[24] ومن هذا المنطلق سنجد أن البلاغة بمفهومها (التراثي) الموسع عوضًا عن أن تكون مضللة، كان لها دورًا بارزًا في تخليق الخطاب.

20 ينظر: عبد الرحمن، طه، *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*، ط.٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٦م، ٢٤٠ – ٢٤٩

21 شارودو؛ منغنو، معجم *تحليل الخطاب*، مرجع سابق، ٤٣١– ٤٣٣

22 شارودو؛ منغنو، معجم *تحليل الخطاب*، مرجع سابق، ٤٣٢

23 ينظر: عبد اللطيف، *ضد البلاغة*، مرجع سابق، ٥٧

24 الجرجاني، عبد القاهر، *أسرار البلاغة*، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ٨

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ولعل دعوة البلاغة العربية إلى الوضوح كمبدأ أساس في فصاحة الكلام، أحد أبرز ملامح تخليق الخطاب، ذلك أن النقاد العرب اختلفوا حول المبالغة والغلو والإغراق والإحالة، واشترطوا لفصاحة الكلام الخلو من التعقيد والغريب، والحوشي من الألفاظ، وكل ما يعيق فهم المخاطب،[25] إذا كان في تحقق الفهم والإفهام بلوغ الغاية. ولا يتحقق ذلك إلا باختيارات واعية ومراعية لاختلاف المقامات، وما يلائم كل مقام، وهذا ما نص عليه بشر بن المعتمر في رسالته حيث قال: «المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال.»[26] ويتجلى في هذا النص الدعائم الأساسية لأي خطاب أخلاقي، حيث رُبطت الإصابة بإحراز المنفعة مع ملاءمة المقام، فلكل خطاب غرضٌ يسعى صاحبه لتحقيقه بطبيعة الحال، لكن المنفعة باقترانها بالصواب ترتقي عن الأغراض المضللة والمنافع الشخصية، وينال صاحبها شرف المعاني.

كما سنجد أن عددًا من المصطلحات التي سكت في البلاغة العربية إنما قد وظفت لمراعاة المقام، وآداب الحديث، فالكناية مثلا، والتلميح دون التصريح قد يكون لدواع أخلاقية تهذيبية، فالكلام الصريح المباشر ليس بالضرورة كلامًا يتكئ على منطق أخلاقي عالٍ، إنما قد تكون فجاجة وقبحًا يأنف المرء منه، وتتنافى مع الذوق العام. ويشير المبرد إلى أن الكناية لها ثلاث صور أحدها: «التعمية والتغطية»، ويضرب أمثلة لهذه التعمية التي تؤكد أن الغرض من هذا الصنيع ليس بالضرورة تضليل للمتلقي ورغبة في خداعه بقدر ما هي مراعاة للعامل الثقافي الذي يحول دون التصريح، فمن ذلك قول الشاعر:

أكني بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكتتم

ولهذا يقول ذو الرمة بكل رهافة حس:

أحب المكان القفر من أجل أنني به أتغنى باسمها غير معجم

وثانيها «الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه في غيره» وأمثلته في العربية جمَّة[27]، وتتجلى هنا الأبعاد الخُلقية التي تخلق باستمرار كلمات لتشير بشكل مبطن إلى كل ما قد يخدش حياء المرء التصريح به، أما الثالثة فهي «التفخيم والتعظيم» ومنه اشتقت الكُنية، وهي ذات بعد ثقافي أيضا إذ يذكر المبرد أن الكنية إما أن تكون للصبي تفاؤلا، أو للوالد صيانة لاسمه.[28]

وقد يكون في التعريض والإيماء والتلويح والإشارة إلى المعنى دون التصريح نوعًا من تخليق الخطاب، لأن من دواعيه حفظ ماء الوجه، فمثله: أن يقول محتاجًا لمقتدر: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [سورة البقرة:١٩٥] وفي ذلك يُقال أيضًا: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب»، ذلك أن في بعض المواقف لا يمكن أن يصرح المرء بالحقيقة، لأنها قد تعرضه للخطر، ومن ثمة فهذه المواربة اللغوية قد تقيه من الكذب، لكون الكلام حمَّال أوجه.

25 العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ١٠٢

26 ينظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت، ١٣٦/١

27 ذكر الثعالبي جملة من هذه الكنايات تحت عنوان: «تحسين المقابح بالكنايات»، ينظر: الثعالبي، أبو منصور، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: شاكر العاشور، ط.١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨١م، ٣٥–٣٦

28 المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد الدالي، ط.٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ٨٥٥/٢ – ٨٥٨

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ومن جملة المصطلحات التي تستحق أن نمعن النظر فيها، هو «الأسلوب الحكيم» إذ يحمل المصطلح نفسه حمولات أخلاقية،[29] تظهر في وصف سالكه بالحكمة، وهي «إصابة الحق في القول أو العمل» كما تعرف فلسفيا بكونها ملكة تصدر عنها الأفعال الصائبة[30]، فهذه القدرة على إصابة الحق، وتمييز الصواب إنما هي منبع الأخلاق. وهذا الأسلوب كما عرفته كتب البلاغة، وما تبدى من أمثلته قائم على وضع تخاطب معين، مكون من: مخاطِب ومخاطَب، أو سائل ومجيب، ويحدد بكونه: «تلقي المخاطب بغير ما يترقب ... أو السائل بغير ما يتطلب»[31] وهذا أول تعريف له، وقد وضعه وحدّه السكاكي (٦٢٦هـ)، والسؤال الذي يواجهنا عند تأمل الأمثلة المساقة تحت هذا الأسلوب هو كيف من الممكن أن يكون حمل كلام المخاطِب الذي يستحيل مخاطَبًا معنى لم يقصده، أو أن يجيب المسؤول بغير ما سئل عنه موضع حكمة لا موضع تضليل؟ هذا السؤال يحيل بالضرورة إلى وجوب حكمة صاحبه، فهو أسلوب مشروط بصفته، إذ أن السلوك في إطلاقه قد يحتمل خداع للمتلقي، لكن الحكمة تتبدى في حسن النية، وإرادة الخير للسائل أو المخاطب، ويبرر السكاكي هذا المسلك، بقوله: «لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال، هو **أليق** بحاله أن يسأل عنه، أو **أهم** له، إذا تأمل»،[32] لكن جدير بالإشارة أن تقدير ما هو أكثر ملاءمة لحال المخاطب أو السائل أو أشد أهمية له، موضع ليس من اليسير تقديره، ولا يخلو من سلطة لغوية يمارسها المجيب على السائل، أو المخاطب.

أما فيما يخص «البلاغة الجديدة» التي اعتمدت على الحجاج كما قدمها بيرلمان في كتابه المشترك مع زميله «البلاغة الجديدة» ١٩٥٨م، وتطوراتها فيما بعد ما يؤكد ضرورة مراعاة البعد الأخلاقي في الممارسة الحجاجية. فبما أن الحجاج غايته الإقناع، ومن ثم الدفع إلى الفعل، فيلزم الخطيب «بوصفه مفكرًا حاملًا لرؤية معينة يسعى إلى إرسائها أو جعلها راجحة في واجهة حجج أخرى مناوئة ... قدرًا من الوضوح في الأسلوب، ومستوى ملموسًا من التواضع والاحترام لشخص المخاطَب، فالغموض والإكراه (القسر) من أشد الأمور تنفيرًا للمخاطبين»،[33] فالحجاج الذي يدعو له بيرلمان ويؤسسه قائم على أساس عقلي منطقي غير ملزم، كما استمد أصوله من فن الخطابة لأرسطو. فقد حدد الحجاج بخمسة ملامح رئيسة، وهي: أن يتوجه إلى مستمع، أن يعبر عنه بلغة طبيعية، ومسلماته لا تغدو أن تكون احتمالية، ولا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية، ونتائجه ليست ملزمة.[34] كما ربط بيرلمان بين البنية الحجاجية وما أسماها الأمور اللازمة لنفاد الخطاب فذكر منها: الوضوح غير المسف، وعدم التكبر والتحذلق، والتمكن من ناصية اللغة.[35] وفي هذه الإشارات اهتمام بأخلاقيات المتحدث الذي يأمل أن تحظى أفكاره بالقبول، دون فرض أو إقصاء أو تضليل أو تلاعب، ومن ثمة وجب عليه أن يحترم الآخر، و خاصة وأن مجال الحجاج هو عند الخلاف في أمور لا يقطع بيقينها، إنما تدور في دائرة الممكن والمحتمل.

29 ينظر: عبد الكريم، جمعان، أسلوب الحكيم قراءة غير أخلاقية، صحيفة المدينة، الثلاثاء 24 / 05 / 2011:
https://www.al-madina.com/article/86142

30 الكتاني، موسوعة المصطلح في التراث العربي، مرجع سابق، ٨٦٩/١

31 السكاكي، محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط.٢، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ٣٢٧

32 السكاكي، مفتاح العلوم، مرجع سابق، ٣٢٧

33 الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، مرجع سابق،٦٧

34 الأمين، محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مج٢٨، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ص ٥٣ – ٨٤، ٦٠

35 الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، مرجع سابق،٧١

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

والحجاج عند النظر إليه بوصفه مقابلا للمغالطات، يمثل مقاومة أخلاقية لكل طرق الخداع والتلبيس التي من الممكن أن تسببها اللغة، فسبل الإقناع والتواصل والتحاور عموما تفضي إلى «اتجاهين أساسين نعمد في أحدهما إلى اتباع السبل المشروعة والمسموح بها، بينما نخرج عنها في النمط الآخر بأن نلجأ إلى استخدام كل الأساليب المشبوهة والملتوية التي نقصد بها الظفر بالمطلوب بأساليب غير مشروعة»[36]، ومن ثمة يكسب الحجاج أهميته النظرية والعملية في ظل سيطرة الخطابات المغالطة والمضللة.

الخاتمة:

هدفت الدراسة إلى رصد العلاقة بين اللغة والأخلاق في حقلين معرفين هما التداولية والبلاغة، وقد خلصت إلى نتيجتين رئيستين هما: أن التداولية اهتمت بالأخلاق في جانبها العملي إذ اهتمت بالآداب الاجتماعية والتفت إلى المستوى اليومي السلوكي في مخاطبة الأفراد بعضهم لبعض، ومدى مراعاة ذلك لضمان نجاح التواصل واستمراره وتحقيق غاياته. أما البلاغة التي كان محور اهتمامها التأثير على المتلقين فلم يقف اهتمامها عند هذا البعد العملي للأخلاق بل تعداه إلى مستوى نظري فلسفي أعمق مهتم بقيم الصدق والوضوح وطرق الإقناع المشروعة بعيدًا عن التلاعب والتضليل بالمتلقين. كما نخلص مما سبق أن ارتباط اللغة بالأخلاق هو ارتباط وثيق حيث يمثل الخطاب بوصفه منجزًا لغويًا الساحة الخصبة التي تتمظهر فيها الأخلاق وتتمثل، وعليه فإن النظر إلى اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية، تحمل في طياتها تأكيدا لهذه العلاقة ولزومها.

قائمة المراجع:

أبو النور، أبو النور حمدي، يورجين هابرمس الأخلاق والتواصل، د.ط، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٢م
الأمين، محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مج٢٨، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ص ٥٣ – ٨٤
بالتريدج، براين، تحليل الخطاب، ترجمة: عبد الرحمن الفهد، د.ط، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، ٢٠١٨م
الباهي، حسان، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ط.٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م
بغوره، الزواوي، اللغة والسلطة، ط.١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠١٧م
بيكر، بول؛ ايلينج، سيبونل، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ترجمة: ناصر عبد الله بن غالي، د.ط، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٨م
الثعالبي، أبو منصور، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: شاكر العاشور، ط.١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨١م
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت
الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت
حمو الحاج، ذهبية، الأخلاق في الخطاب بين القصدية التداولية والقيود الاجتماعية، ضمن كتاب الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغية وتداولية، ط.١، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٩م
الراضي، رشيد، الحجاج والمغالطة، ط.١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م

36 الباهي، حسان، *الحوار ومنهجية التفكير النقدي*، ط.٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م، ١٦٥

زوفري، ساندرين، اكتساب التداولية من منظور معرفي واجتماعي، ترجمة: سعد محمد القحطاني، د.ط، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠١٨م

السكاكي، محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط.٢، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٧م

سويرقي، محمد، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، مج٢٨، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ص ٢٩ – ٥٠

شارودو، باتريك؛ منغنو، دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري؛ حمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٣م

صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ط.١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م

عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط.٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٦م

عبد الكريم، جمعان، أسلوب الحكيم قراءة غير أخلاقية، صحيفة المدينة، الثلاثاء 24 / 05 / 2011: https://www.al-madina.com/article/86142

عبد اللطيف، عماد، التحليل النقدي للخطاب عربيا إطلالة موجزة، ضمن كتاب: التحليل النقدي للخطاب مفاهيم ومجالات وتطبيقات، إشراف وتحليل: محمد يطاوي، ط.١، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ٢٠١٩م

عبد اللطيف، عماد، ضد البلاغة: الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون، ط.١، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٧م

العمري، محمد، دائرة الحوار ومزالق العنف، د.ط، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م

العمري، محمد، بلاغة الخطاب الإقناعي، ط.٢، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م

فلاورديو، جون؛ ريتشاردسن، جون، مقدمة كتاب دليل روتلدج للدراسات النقدية للخطاب، ترجمة: سعيد بكار؛ أحمد العياشي، مجلة أنساق لغوية وثقافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر بأكادير، ع ١، ٢٠١٩م.

الكتاني، محمد، موسوعة المصطلح في التراث العربي، ط.د، الشركة الجديدة دار الثقافة، المغرب، ٢٠١٤م

ليتش، جيوفري، مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، د.ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣م

المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد الدالي، ط.٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير؛ محمد أحمد حسب الله؛ هاشم محمد الشاذلي، د.ط، (دار المعارف، د.ت)

ميلز، سارة، الخطاب، ترجمة: عبد الوهاب علوب، ط.١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.

العدد السابع والثلاثون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2021 م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

Abstract:

The study proceeds from the hypothesis that discourse is an ethical practice, and to prove this hypothesis, this study presented the concepts of discourse and ethics, in an attempt to edit terminologies of the study. Thereafter, it briefly looked into the dimension of relationship between language and ethics in an ancient and modern philosophical framework. The discussion further focused on two fields of knowledge: pragmatism and ethics, and rhetoric and ethics. In the first field it is stated clearly that the attention to the ethical dimension in the study of language during deliberation, emerged with the interest in social etiquette, starting with speech actions, going through the principle of cooperation, and ending with theories of politeness. While in the second field it embarked on two paths: the first is the relationship of ethics with rhetoric in the Arabic linguistic heritage and the second is the relationship of ethics with the modern rhetoric, as both have contributed to the call for the synthesis of the discourse, either implicit or explicit.

Keywords: Discourse, Ethics, Pragmatism, Rhetoric.